الفصل الأول

جغرافية تونس

كان لموقع تونس فى مفترق طرق البحر الأبيض المتوسط ولوضعها الجغرافى بصفة عامة أثر كبير فيما طرأ عليها من أحداث على ممر الأيام مما طبع تاريخها وأوضاعها السياسية والاجتماعية بطابع خاص .

وتمتاز تونس باتساع سواحلها المنبسطة ووفرة سهولها وسلسلة جبالها التى لا تمنع اتصال الشمال بالجنوب مما جعل البلاد معرضة لكثير من الفتوحات كما شهد بذلك تاريخها القديم والحديث . ويتجاذب طبيعتها الجغرافية بصفة عامة عاملان أساسيان كان لهما الأثر الكبير فى تكييف طقسها وانتاجها الزراعى وهما : وجود الصحراء فى جنوبها والبحر فى شمالها وشرقها .

الطبيعة :

وتبلغ مساحة تونس ١٢٥١٨٠ كيلومتر مربعاً ، وهى تمثل القسم الشرقى من المغرب العربى الواقع فى شمال قارة أفريقية ، تحدها من الغرب الجزائر ، ومن الجنوب الشرقى ليبيا ومن الجنوب الغربى الصحراء . وتربطها بالجزائر سلسلة جبال الأطلس التى تعتبر العمود الفقرى لأقطار المغرب العربى ، وقد جعلت من هذه الأقطار وحدة جغرافية متسعة . وتمتد هذه الجبال فى تونس من الجنوب الغربى بجوار تبسة إلى الشمال الشرقى حيث جبل زغوان وبو قرنين ، ويزيد ارتفاعها بالقرب من حدود الجزائر على ١٥٠٠ مترا ، ثم يقل شيئاً فشيئا صوب الشمال إلى أن يبلغ التلال الخصبة المحيطة ببنزرت وماطر ويتخلل هذه السلسلة ممرات كثيرة تسهل الاتصال بين الشمال والجنوب . وتغطى هذه الجبال أشجار الفلين وصنوبر حلب ، وفيها مناجم الرصاص والحديد والفسفات

وتتخلل هذه الجبال سهول كثيرة مشهورة بانتاجها للحبوب .

أما الشواطئ في تونس فهي منخفضة على العموم ماعدا في الشمال ، ولا يتعدى عمق البحر ٢٠٠ مترا في هذه الشواطئ ، مما جعلها صالحة لصيد السمك . وبأزاء مدينة صفاقس تمتد جزر قرقنة التي اشتهر أهلها بصيد الأسفنج ، وفي جنوب خليج قابس توجد جزيرة جربة التي اشتهرت ببساتينها وواحاتها الجميلة . وتتصل سهول منطقة الساحل بسهول الشمال بواسطة مضائق زغوان وقرنبالية ، كما أن مضائق قابس تربطها بسهول شواطئ الجنوب ، وتحتل السهول ٨٦٪ تقريباً من مجموع مساحة القطر التونسي .

ولا يوجد في تونس من الأنهار الجديرة بهذا الاسم إلا نهر مجردة وفروعه ، وهو ينحدر من الغرب إلى الشرق صوب خليج تونس ؛ على أن مياهه تقل كثيراً زمن الصيف . أما نهر مليان فإنه عبارة عن نهر بسيط تنضب مياهه في الصيف في كثير من الأحيان . ويوجد كذلك منحدرات أشهرها زرود ومرج الليل ، وهي تفيض من غير موسم وتصب في سبخات أو تضيع في الفيافي .

ومناخ تونس على العموم دافئ معتدل . أما الأمطار فهي غير منتظمة إذ يختلف سقوطها من ناحية إلى أخرى ومن سنة إلى سنة ، وكذلك يختلف باختلاف ارتفاع الأرض وقربها من البحر أو من الصحراء ، مما جعل كل منطقة من المناطق التونسية مختصة بإنتاج معين . ويمكن تقسيم المناطق كما يأتي :

في شمال سلسلة جبال الأطلس وبخاصة على ضفاف نهر مجردة توجد أخصب الأراضي التونسية الصالحة لإنتاج الحبوب . وقد اشتهرت فيها الكاف وباجة وتبرسق وسليانة والفحص وسوق الاربعاء وسوق الخميس وطبربة وماطر ، وهي من أهم المراكز الفلاحية بتونس .

وفي جنوب جبال الأطلس يمتد « إقليم المنبسطات » (La Region des Steppes) بين مدينة قفصة من الغرب وواحات الجريد من الجنوب والساحل التونسي من الشرق ، ولا تقطعه إلا تلال قليلة . ويغطي هذه المنبسطات من الناحية الغربية مساحات شاسعة من الحلفاء ، وبها مزارع كبيرة ومراع شاسعة ؛ وتقل الأمطار في هذا الإقليم حتى تنقطع تماماً في الجنوب ، وليس به من القرى

إلا القليل باستثناء مدينة القيروان .

وتمتاز منطقة الجريد ومنطقة نفزاوة فى الجنوب التونسى بواحاتها الجميلة الغنية ووفرة مياهها .

وفى الشمال الشرقى تمتد شبه جزيرة بين خليج تونس وخليج الحمامات تسمى « دخلة المعاوين » وهى من أخصب الأراضى التونسية بما فيها من غابات الزيتون وأشجار البرتقال ، وتكثر فيها القرى العامرة .

أما ما يعبر عنه « بالساحل » فهى منطقة تبدأ من ناحية سوسة وتنتهى إلى ناحية صفاقس ، ويغطى هذه المنطقه غابات الزيتون منذ أقدم العصور .

المدن :

وتوجد فى تونس مدن كثيرة وبخاصة فى الشمال وعلى السواحل وفى الجنوب . وقد لعب كثير منها دوراً هاماً فى تاريخ تونس .

وأهم هذه المدن : تونس والقيران وصفاقس وسوسة وبنزرت وقابس والمهدية وتوزر ومساكن والمنستير والقلعة الكبرى وماطر وباجة والكاف .

ومدينة تونس الواقعة على خليج تونس هى العاصمة الإدارية والثقافية والاقتصادية للمملكة التونسية . وقد لعبت أدواراً هامة فى تاريخ البلاد ، وكان تاريخها قبل الفتح الإسلامى مجهولا ؛ إذ أن العاصمة فى ذلك الحين كانت مدينة قرطاجنة ، وبعد الفتح العربى اتخذ العرب من مدينة القيروان عاصمة لهم ، وبعد أن استولوا على مدينة قرطاجنة سنة ٦٩٨ م بدأت مدينة تونس تنافس القيروان حتى أصبحت عاصمة من العواصم الإسلامية التى ازدهرت فيها الحضارة العربية. ومنذ عهد الدولة الحفصية أصبحت قاعدة للمملكة التونسية ، وقد أخذت مدينة تونس شكلها الحالى ابتداء من القرن الرابع عشر م.

ومدينة صفاقس الواقعة فى شمال خليج قابس هى عاصمة الجنوب التونسى الإدارية ، وتعد أهم مركز اقتصادى لتونس ، وقد أحاطت بها مزارع الزيتون الشاسعة منذ القدم ، وينتهى إليها خط حديدى أنشئ لنقل الفسفاط من قفصة إلى البحر .

ومدينة بنزرت الواقعة فى الشمال على خليج بنزرت هى من الموانى المشهورة فى البحر الأبيض المتوسط منذ عهد قديم ، وكانت معقلا من معاقل القراصنة المسلمين ؛ ولهذا توالت عليها غارات الإفرنج فى القرن السادس عشر ، ودمرها الفرنسيون بقنابلهم مرتين فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ، ثم ازدهرت من جديد منذ أواخر القرن التاسع عشر ، إذ أصبحت من أهم القواعد الحربية فى البحر الأبيض المتوسط .

ومدينة قابس هى عاصمة منطقة « الأعراض » ، وتحيط بها حدائق النخيل الشاسعة ، وهى فى الوقت الحاضر مركز من مراكز القيادة العليا العسكرية الفرنسية لمنطقة الجنوب التونسى .

ومدينة توزر فى الجنوب التونسى هى عاصمة « واحات الجنوب » ، وتحيط بها القرى المشتتة بين الواحات ، وقد اشتهرت بما فيها من عيون كثيرة توزع مياهها بين البساتين بطرق هندسية دقيقة التنظيم وضعها العالم المشهور ابن الشباط التوزرى فى القرن السادس الهجرى ، ولا تزال معمولا بها حتى الآن ، وهى مدينة عتيقة ازدهرت فيها المدنية قرونا متوالية منذ عهد الرومان .

وهناك مدينتان أثريتان أهل نجمهما فى العصور الأخيرة وهما : القيروان والمهدية

أما القيروان فهى أول مدينة بناها العرب فى المغرب وسط منطقة صحراوية بعيدة عن البحر ، وقد أنشأها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ . وكانت عاصمة العرب قرونا متوالية ، وتعد اليوم أهم مدينة أثرية فى المغرب لما اشتملت عليه من المساجد والمبانى الأثرية الفنية التى ما تزال قائمة الذات .

أما المهدية فهى من عواصم الساحل التونسى أسسها المهدى عبيد الله الشيعى سنة ٩١٦ م وصارت منذ ذلك العهد قاعدة الخلافة الفاطمية ، ثم أصبحت فيما بعد قاعدة من قواعد القرصنة فى البحر الأبيض المتوسط . وقد احتلتها القوات المتألفة من أهل جنوة وبيزة وصقلية سنة ١٠٥٧م . ثم احتلها النورمان ثم الأسبان ، ولم تخلص من أيدى هؤلاء إلا فى عهد الأتراك .

السكان :

يبلغ عدد سكان تونس بحسب إحصاء سنة ١٩٤٥ ١٧٠ ر ١٥ ٠ ر٣

منظر عام لمدينة تونس

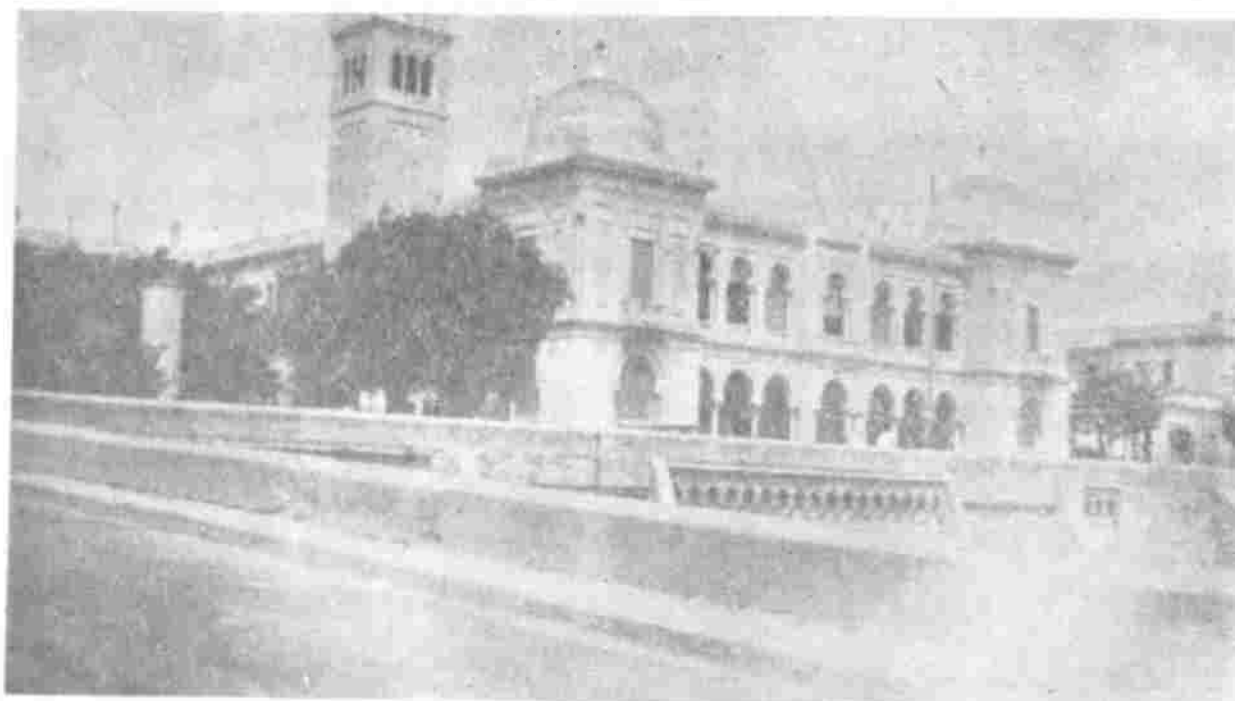

المدرسة الصادقية

نسمة ومعظمهم من العرب المسلمين ، وتعد تونس من أكثر أقطار المغرب العربي استعرابا بعد هجرة بني هلال إليهـا في القرن الحادي عشر م ، ولم يبق أثر للعنصر البربري الأصلي ولا للقرطاجنيين والرومان الذين احتلوا البلاد قرونا متوالية قبل العرب ، كما انمحى أثر الأتراك من تونس ، وقد تغلب العنصر العربي على كل هذه العناصر وابتلعها .

أما لغة السكان فهي العربية ، وتعتبر اللهجة التونسية العامية من أقرب اللهجات للعربية الفصحى ، وقد اختفت اللهجات البربرية القديمة ولا تجد بقاياها اليوم إلا في منطقة قفصة ومطماطة الجبلية والدويرات وشنني بأقصى الجنوب التونسي . ويدين جميع السكان العرب بالدين الإسلامي ويتبع معظمهم المذهب المالكي .

وقد انتشرت الحياة الحضرية في تونس منذ عهد قديم وهي في تقدم مستمر ، ويبلغ عدد سكان المدن بالنسبة لمجموع السكان ١٨ ٪ ، وتكثر في تونس الطبقة المتوسطة في المدن والقرى ، إلا أن الفقر الذي عم طبقات الشعب من جراء سياسة فرنسا الاستعمارية قد أضر بهـذه الطبقة أكثر من غيرها ، وانتشرت الطبقة الفقيرة في البوادي وعددها يتزايد كل سنة .

ولا توجد القبائل الرحل إلا في المنطقة الوسـطى للقطر التونسي ، على أنهم لا يرتحلون إلى مناطق الشمال إلا في مواسم معينة وفي سنوات القحط والمجاعة ، ولو اعتنت السلطة في تونس بمسائل الري لاستقرت القبائل نهائيا في هـذه المناطق الشاسعة .

ويوجد في تونس أقلية من اليهود يبلغ عددها ٧٢٫٠٠٠ نسمة ، وقد استوطنوا تونس من أقدم العصور وخاصة بعد أن طردوا من الأندلس ، كما كانوا يلجأون إليها هروباً من الاضطهاد الذي كانوا يلاقونه في أوربا . فظلوا في تونس يتمتعون بحرية كاملة في القيام بشعائر دينهم والمشاركة في التجارة والصناعات ، وتقلد بعضهم مناصب عالية في الدولة التونسية . ويتكلم يهود تونس لهجة تونسية محرفة ولهم عوائدهم الخاصة وتقاليدهم .

أما الجاليات الأوربية فيبلغ تعدادهـــا ٢٤٣٫٠٠٠ نسمة بحسب إحصاء سنة ١٩٤٥ وهي تعيش بالمدن في أحياء خاصة وتتمتع برفاهية لا يتمتع بها السكان

العرب وذلك بسبب المساعدة التى تبذلها لهم السلطة الفرنسية لتمكنهم من الاستيلاء على خيرات البلاد واستغلالها لمصالحهم الخاصة .

المنتجات والموارد :

وقد اشتهرت تونس منذ عهد قديم بزراعتها ، وكانت تسمى فى عصر الرومان « مخازن رومة » لما كانت تنتجه من الحبوب والزيوت والتمر ومختلف الفواكه . وبالرغم من ثروتها المعدنية الكبيرة فهى قبل كل شىء بلاد زراعية ، ومعظم سكانها يعيشون من الزراعة بصورة مباشرة ، وتبلغ منتجات أرضها نصف تجارتها مع الخارج ، وكل الحركة الصناعية والتجارية ترتكز على حالة الزراعة وتتأثر بأزماتها .

وأكثر المنتجات الزراعية التونسية هى الحبوب ، وتزرع منها سنويا مساحة تبلغ ٠٠٠ ر ٥٩٠ ر ١ هكتار[1] بينما لا تتعدى المساحة المغروسة بأشجار الفواكه ٠٠٠ر٦٣٠ هكتار ، ويحتل القمح والشعير ٩٣ ٪ من مجموع المساحات المزروعة حبوبا ، ويبلغ متوسط انتاج القمح السنوى ٠٠٠ر٨٦٠ر٣ قنطار ويبلغ متوسط المساحة المزروعة سنويا ٨٠٠ ر ٧٣٣ هكتار ، أما ما يصدر منه سنويا فيتجاوز مليونا ونصف مليون قنطار . ويبلغ متوسط انتاج الشعير سنويا ٠٠٠ر٤٠٠ر٣ قنطار ويبلغ متوسط الصادر منه من خمسمائة ألف قنطار إلى مليون قنطار[2] .

ومن أهم محصولات البلاد الزيتون الذى يبلغ عدد أشجاره ٢٢ مليون شجرة ولا يزال فى ازدياد ، وتأتى تونس فى الدرجة الرابعة بعد اسبانيا وإيطاليا واليونان فيما تحتوى عليه من أشجار زيتون ، وهى الثالثة فيما تصدره إلى الخارج من الزيت ويبلغ ما تصدره من الزيت ٠٠٠ ر ٦٠٠ قنطار من متوسط انتاج سنوى قدره ٠٠٠ر٨٠٠ قنطار .

وقد اشتهرت تونس بصناعة الشاشية (الطربوش) والسجاد والخزف ، ونسج الحرير والصوف ، ونقش النحاس والفضة .

وأرض تونس غنية بمعادنها المختلفة ، وتعد ثانى أقطار العالم المنتجة للفسفات ، كما يستخرج منها الحديد والرصاص والزنك والمنغنيز والنحاس والبروم والبوتاس وتعتمد تجارة تونس مع الخارج على تصدير القمح والزيت والفسفات

(١) إحصاء سنة ١٩٣٩ .

(٢) كل الأرقام المذكورة مأخوذة من متوسط خمس سنوات